خداع امرأة

للأستاذ كامل محمود حبيب

وقف الفتى (عز الدين) يجفف عبراته المهراقة من أثر الأسى الذي تدفق في طوايا قلبه عاصفاً عاصفاً ، يقض مضجعه ويهيج من أشجانه ويتغلغل في ثنايا حياته قلقاً واضطراباً يزعزع كيانه ويهد من قوته ... الأسى الذي أحسّ به أول مرة في حياته حين وجد فقد أمه الشابة ، وحين رآها مسجاة في كفن ، وحين شهدها وهي تتوارى إلى الأبد في رمس ، وحين ارتد إلى الدار - آخر الليل فألفاها خاوية من الحنان خالية من العطف ما فيها سوى رجل واحد يجوس خلالها في حيرة وقلق ، وعلى وجهه سمات الهم والضيق ، مفزعا ما تهدأ نزعته ، تسكن حرقته . واقترب الفتى من أبيه ولصق الأب بابنه ، ورانت عليهما صدمة المصيبة ووحشة المكان ، وعقد الحزن لسانيهما ولكن العبرات تحدثت حديثاً طويلا ما ينساه الفتى الشاب أبداً

وقف الفتى (عز الدين) وحده يجفف عبراته المهراقة وقد أشكل عليه الأمر واختلطت الحال ، فأمامه حقيبة مفتوحة ، وإلى جانبها ثياب متناثرة هنا وهنالك ، ومن حواليه حاجات مبعثرة ، وهو بينها يضرب في تيهاء مضلة لا يستطيع أن يجمع شتاتها ولا أن يلم شعثها ، فما له بذلك من عهد ولا طاقة . وتراءت له أمه في الخيال يوم أن كانت تنسق له حاجاته أول كل عام دراسي ، يوم أن كان ينفض عنه غبار القرية ليستقبل أيام الدرس في المدينه يوم أن كانت أمه تعينه على أمره لا تحمله مشقة ولا تكلفه عنتاً ، والدار من حولها تزخر بالناس وتفهق بالخدم ، فأجهش بالبكاء وأوشك الخور أن يعصف به لولا أن خيل إليه أنه يسمع صدى صوت ناقوس الكلية يناديه في إلحاح إلى حياة الكد والعمل ، ليسطر بدم الشباب الفوار أول علامات النبوغ والتفوق ، وليقتحم بجده سبيل السمو والرفعة .. ، وليدفن هناك - بين شواغله - آلام قلبه وضنى روحه ، فهب في تراخ وكسل يريد أن يهيء نفسه للسفر

لقد كان (عز الدين) وحيد أبويه ، في العشرين من سني حياته ، انسم بسمات الريف ، وطبع بطابع القرية ، طيب القلب رضي النفس هادىء الطبع ، وهو سليم البنية قوي التركيب ، لم يفتره الشباب - يوماً - عن الدرس ، ولم يصرفه مال أبيه عن أن يشمر للتحصيل ، ولم تبهره أنوار المدينة عن أن ينفذ إلى غايته في سهولة ويسر فنال شهادة الدراسة الثانوية في تفوق فتح أمامه باب كلية الهندسه في غير عنت ولا إرهاق . وطرب الأب لفوز ابنه ، واستبشرت الأم . ولكن أمراً نجم - على حين فجأة - فغطى على فرحة الأب ووارى بهجة الأم ... لقد انحطت العلة على الأم تعركها عركا شديداً في غير هوادة ولا لين ، فانطلق الأب يطب لها ، والابن إلى جانبه ، وإن الفزع ليملأ قلبه ، وإن الوجوم ليغض من نشاطه . وحار الطب في أمرها زمانا فهوت بين يديه جثة هامدة وانطوت أيام لم تمسح على شجن الأب ولا طامنت من كربة الابن

* * *

وانطلق عز الدين إلى المدينة ... إلى كلية الهندسة ، يرزح تحت عبء من حاجاته ، ولكنه اغتمر بين أترابه يلهو في لهوهم ويعبث عبثهم لينسى صدمة القضاء العاتية . وأراد الأب - بعد حين أن يطمئن على وحيده ، فانطلق إلى المدينة يسري عن ابنه بالجديد من اللباس والطيب من المأكل والجزل من العطاء ، فهدأت جائشة الابن وسكنت هواجسه ، فاطمأن إلى درسه وإلى رفاقه .

لقد كان عز الدين طالباً ريفياً يقضي العام الدراسي في القاهرة منكبا على الدرس في جد ونشاط - كدأب أبناء الريف من الطلبة لا يشغله من نوازع الحياة إلا ما يتناهى إليه - بين الفينة والفينة من أخبار القرية وهي تافهة حقيرة غير أنها كانت تهز مشاعره وتثير عاطفته لأن فيها ذكر أبيه وذكر أمه وذكر غيطه و ...

فلما بدأ دم الشباب الثائر ينتفض فى قلبه أحس أن فى القرية أشياء أخر تجذبه إليها فى عنف. فهو يقضى شهور الصيف هناك ينعم بالراحة من عناء الدرس، ويسعد بالهدوء من صخب المدينة، وهو يخرج أصيل كل يوم – فى جماعة من رفاقه – إلى ضفة الغدير يتنسم عطر الريف ويتفكه بالحديث، والنكتة ويعابث بنات الريف وهن لدى الغدير يملأن جرارهن، وإنه لذو خيال وذو قلب. وكان يشعر بأن خواطره تحوم – أبداً – حول فاطمة، وهى فتاة فيها جمال الريف وصفاء الجاذبية ومرح الظبى، فراح يداعبها بكلام فيه الرقة والظرف، وهى تقبل عليه – حيناً – فى خفر، وتعرض عنه حيناً آخر – فى دلال، وعلى وجهها بسمات الرضا والسعادة. فلا عجب إن كانت القرية تجذبه إليها ليرى هناك وجها أشرق النور من جبينه فأحبه فاطمأن إليه، هو وجه فاطمة التى يطمع أن يجلس إليها ساعة من زمان فى خلوة، فى منأى عن عين الرقيب..

أما الآن، حين حطمته الأيام ففقد أمه وأحس أنه فقد فيها الرفيق والعون والأسى جميعاً.. الآن، جلس يكتب إلى أبيه «يا أبى، لقد مرت الأيام والشهور وتهدهد من أحزانى وتسرى من كربتى، وأنا أخشى أن يثير المكان نوازع نفسى وأشجان روحى فأشرق بالهم وأغص بالغم، فهلا تركتنى أقضى عطلة الصيف فى دار عمى فى الأسكندرية فألمس هناك عزاء وسلوة؟»

وقرأ الأب رسالة ابنه فما اختلج قلبه ولا اضطرب فؤاده، لأنه يطمع أن يذر ابنه يتلمس السلوة والعزاء، ولأنه يريد أن يدفع ابنه عن القرية لأمر يسره فى نفسه.

لطالما أحس الرجل فى فقد زوجته لوعة الفراق وألم الوحدة ولذع الوحشة، ولطالما اضطربت فى ذهنه خاطرة انضمت عليها جوانحه فأسرها فى نفسه أياماً وأياماً وهو فى فورة الرجولة وفحولة العمر، ولطالما دخل الدار فخيل إليه أنها تلفظه لأنه لا يلمس فيها أنس نفسه ولا راحة قلبه، وما فيها سوى خادم عجوز تقبع – طول النهار – فى ناحية – كأنها دمية من طين أسندت إلى جدار، ولطالما ضاق بحاجاته فالطعام تافه قذر تعافه النفس ويتقزز منه الذوق، والملابس وسخة متناثرة لا تتناولها بالترتيب يد رفيقة ولا يرق حواليها قلب حبيب ولا ... وفاضت نفس الرجل بالضيق والملل فعزم على أمر أسره فى نفسه.

وتعاقبت الأيام ترغم الرجل على أن يكشف رويداً رويداً – عن سر قلبه، وعلى أن يتحدث – فى حذر – إلى خلصائه بذات نفسه، وفى الناس من يرود له الطريق ويمهد السبيل، فإذا هو زوج لفتاة من بنات الريف، فتاة فى عمر ابنه عز الدين ... تزوج منها على حين أن ابنه هناك فى شغل لا يتراءى إليه من خبر نبضات قلب أبيه إلا همسات فيها الشك والريبة.

ومضت سنتان أسدلتا على قلب الفتى حجابا كثيفاً من النسيان فتيقظ قلبه مرة أخرى – يخفق خفقات فيها الحنين والشوق إلى ملاعب الصبا ومراتع الشباب ... إلى الدار، إلى الحقل، إلى الغدير، إلى الصبايا وهن يملأن جرارهن أصيل كل يوم وإن وجوههن لتطفح بالبشر والابتسام، وإن حركاتهن لتتوثب فتنة وإغراء، إلى فاطمة... الفتاة الرشيقة الجميلة الآسرة التى يطمع أن يجلس إليها ساعة من زمان فى خلوة، فى منأى عن عين الرقيب.

ودخل الفتى الدار التى لم يسعد بها منذ سنتين، دخلها فوجد أباه بين رفاقه يتألق وجهه غبطة وسروراً، وقد انزاحت عنه غشاوة الأسى التى رانت عليه حيناً من الزمان.

وخلا الرجل إلى ابنه يحدثه حديث حياته الجديدة فرق الفتى لـكلمات أبيه فما أبدى ضيقا ولا نفوراً على حين قد تيقظ فى نفسه تاريخ أمه منذ أن أحس وجودها إلى أن وجد فقدها

ونظر عز الدين إلى زوجة أبيه — حسنية ... ثم غض الطرف فى ذلة وارتد فى انكسار، ثم استسلم لخواطره السود حين تراءى له أنه أصبح غريبا فى دار أبيه. ونظرت حسنية إلى الفتى بعين الأنثى فبدا لها مايضطرب فى فؤاده؛ وآذاها أن يلفه الغم فى طياته لأنها هى هنا.. هنا فى دار أبيه، فراحت تتودد إليه فى رفق وتتقرب منه فى لين تريد أن تستلبه من شجونه. وتكلمت الفتاة فى ظرف وأنصت الفتى فى هدوء.. والأب يرى فتطمئن وساوسه لأنه شعر بأن الألفة توشك أن تنشر جناحيها على الدار

ومرت الأيام والفتى يجلس إلى حسنية ساعة من الليل أو ساعة من النهار، وهو يحس أن فى عينيها بريقا يخطف القلب، وأن فى أنوثتها جمالا يخلب الفؤاد، وأن فى حديثها موسيقى تسحر اللب، وأن فى قلبه نزعة جياشة لاتهدأ إلا فى كنفها، وأن فى روحه عاطفة فوارة لاتطمئن إلا إلى حديثها، وشعرت الأنثى

بدوافع قلب الفتى فذهبت تفسح له مكانا فى قلبها وفى مجلسها ، غير أن نظرات الأب النفاذة لم تغمض عن خفقات القلبين فضرب بينهما بحجاب . ولكن الفتاة كانت قد لمست فرق ما بين الشباب المضطرم وبين الرجولة الهادئة التى توشك أن تستحيل إلى شيخوخة باردة ، فرق ما بين الحياة الفوارة العارمة وبين الحياة الواهية الضعيفة التى تكاد تنحدر إلى قرار القبر ... فما أعجزتها الحيلة . وفيها المكر والخداع ... عن أن تلق فتاها — بعد الفينة والفينة ... فى ناحية من الدار على حين غفلة من زوجها

وطغى حب حسنية على خواطر الفتى فطم على آثار فاطمة فى قلبه ، وشغله عن أن يسعى إليها أصيل كل يوم وأقعده عن أن ينطلق إلى رفاقه لأنه أصبح لا يحس فى حديثهم سلوة ولا فى مجلسهم متعة

ووقف الفتى وحده — ذات مساء — يعد حاجاته ويرتب ملابسه ويهيىء نفسه للسفر ، وإن قلبه ليهفو نحو حسنية : الفتاة التى سلبته قلبه ووعيه فى وقت معا ونزعت عنه عقله ورشاده فى آن واحد ، وأحس ، وهو يضطرب بين خواطره وحاجاته بأن يداً تربت على كتفه فى رفق ، فنظر فاذا حسنية إلى جانبه تلصق به وهى تبسم فى تراخ وتكسر فشعر بالدفء يتدفق فى أوصاله منبعثا من شباب الفتاة ومن أنوثتها ، كأن تياراً عنيفا من الكهرباء يسرى فى دمه فهفا نحوها فى شوق ، وحبا اليها فى حنان ، ولصق جسم بجسم ، واقتربت شفة من شفة ولكن الفتاة مالبثت أن طارت من بين يديه وهى تناديه فى همس . وداعا . . وداعا ، ياحبيبى ، وانغمر الفتى فى أمواج من الأسى والشوق حين رأى الفتاة تنفلت فتتوارى فى ظلام الدار ، وتذره وحده يعيش بالذكرى

* * *

ومضت ثلاث سنوات فاذا الفتاة أم طفلين ، ولكنها لم ترتدع عن أن تستمتع برفقة صاحبها — ابن زوجها ، عزالدين أثناء عطلة الصيف من كل عام ، وهى تجذبه اليها فى قسوة ، تسيطر على خواطره فى عنف ، وهو فى عمى عن الهاوية التي يوشك أن يتردى فيها بحمقه وجهله

لقد أحست الأنثى بالشباب فكرهت الشيخوخة ، واستشعرت المرح فأبغضت الرزانة ، ولمست القوة فامتهنت الضعف . واضطرت نفسها بفكرة واحدة سلبتها الهدوء والقرار : ليتها تستطيع أن تنزع عن هذه الدار لتعيش بين ذراعى فتى فى مثل سنها !

وأسدل الطيش على عقل الفتى ستاراً كثيفا من الغباء فعم الأمر عليه فنسى أنه يقترف جريمة شنعاء تنكرها الانسانية ويمجها العقل ، حين يستخذى للشيطان فيفتات على حق أبيه يريد أن يستلبه قلب زوجه وأن يسطو على شرفه وكرامته فى غير روية ولا عقل ، ونسيت الفتاة أنها ترتدغ فى أعظم حماقة سولها نفس أنثى لأنها تبذر غراس الكراهية والشقاق بين الأب والابن . ولكن للشيطان مآرب ينفذ منها إلى القلوب فيطم على النوازع الانسانية لتتأرث منها الحيوانية الجائعة فحسب

واطمأنت الفتاة إلى فتاها ، فجلست إليه — ذات ليلة — توسوس له وتفتره عن انسانيته وتختله من رجولته ، فقالت تحدثه « . . وأنت ترى أن أباك يضرب بينى وبينك بحجاب ما كان لك أن تظهره لولا حيلة أحتالها أو علة أتملل بها ، وهو يضيق علينا الخناق فأشعر كأن الدار سجن يضمنى بين جدرانه ضمات قاسية توشك أن تقضقض عظامى » فقال الفتى « آه ليتنى أجد فرجة أنفذ منها فأزيح هذا الستار ، ولكننى كما تريني عاجز اليد واللسان » فقالت فى تهكم « عاجز اليد واللسان ؟ هذا عجيب ! رجل فيه الرجولة والبأس يعترف أمام التى أحب أنه عاجز اليد واللسان ؟ هذا ولا ريب منتهى الضعف والتخاذل » فقال الفتى فى يأس « وماذا عساى أن أفعل ؟ » فقالت الفتاة فى مكر وهى تستل من بين ثيابها مسدسا « انظر ، انظر ! » وذعر الفتى مما رأى وشملته رجفة عنيفة مااستطاع أن يداريها عن التى أحب ، فنزع عنها وهو يهمس « أقتله ؟ أقتل أبى ؟ كلا ... كلا » وتصنعت الفتاة الماكرة الغضب والنفور فهبت من مكانها فى ثورة وهى تقول « الآن بدا لى ما كنت تخفى ... إنك لا تحبنى ... لست رجلا ، أيها المخادع الوضيع ... » ثم دفعته عنها فى غلظة وأسرعت إلى داخل الدار ...

ظل الفتى طول ليله يتقلب فى فراشه لا يغمض له جفن ولا تهدأ له ثائرة ، وإنه ليضطرب من هول ما رأى وما سمع ، وغبرت ساعات وإن الشيطان إلى جانبه يوسوس له بأمر ، وإن قلبه الطائش

ليزين له الجريمة ، غير أن عقله كان يناديه من خلال نزواته – بين الحين والحين – ليدفعه عن الهاوية السحيقة التي يوشك أن يتردى فيها ، ثم انحط – بعد لأي في فراشه هامداً من أثر المعركة النفسية العنيفة التي خاض غمارها منذ أن رأى فوهة المدس تلمع في يد زوجة أبيه ، حسنية .

وأصرت الفتاة على فتاها ، وراحت تستعين بفتنة الأنثى وإغراء الشيطان ودوافع قلبه هو ، حتى أسهل وانقاد ، وأخذت هي تهيىء السبيل وترسم الخطة، ثم قالت له « ... وعند الفجر تهب من فراشك في خفة وهدوء فتتوارى خلف الباب ، وحين يعود أبوك من المسجد بعد صلاة الفجر تفجؤه وهو يفتح الباب فتطلق عليه سبع رصاصات متتالية ، ثم نستغيث معاً بعد أن تقذف أنت بالمدس في بيت الخلاء »

وأراد الفتى أن ينفذ خطة رسمتها زوجة أبيه ، ولكنه حين أحس بمقدم أبيه انهارت عزيمته ووعى جلده وانتفض قلبه وتصلبت أطرافه فتوارى في ناحية يكتم أنفاسه خشية أن يراه الرجل فيرى فيه العقوق والجحود ... توارى حتى دخل أبوه ثم انفلت إلى إلى حجرته وهو يرتعد من شدة الخوف والفرق .

لم يرق حسنية ما رأت في الفتى من فزع وضعف فعزمت على أن تصحبه لتعينه على أمره ولتشد من عزمه. وعند فجر اليوم التالي وقفت الزوجة الماكرة خلف الفتى وقد ضمته إلى صدرها ومدت يدها إلى جانب يده تريد أن تساعده على أن يسدد الطلقات إلى الهدف، إلى قلب أبيه، في رباطة جأش وهدوء أعصاب وحين دخل الرجل ضغطت الزوجة بأصابعها على زناد المسدس مرات ومرات ويد الفتى تتراخى وتهوى فانطلقت سبع رصاصات استقرت جميعاً في أحشاء الرجل فسقط لدى الباب وهو ينادي « الله أكبر ... الله أكبر ! » وابتعدت الزوجة عن الفتى في خفة وثبات ثم صاحت « القاتل ... القاتل ! قتل أباه ... قتل أباه ! »

وتكشفت المرأة على حين فجأة – عن نوايا شيطانية وضيعة .

آه ، لقد مكرت المرأة بالفتى الغر مرتين لتستمتع بنزواتها المشبوبة وبشبابها المضطرم وبمال زوجها الضخم ، على حين قد تنفلت تقذفت به في هاوية سحيقة ليكون فداء الشهوات نفسها الحيوانية .

فيا لمكر الأنثى ... يا لمكر الأنثى .

كامل محمود حبيب

احمد حسن الزيات

يقـــــدم

تاريخ الأدب العربي

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى .

طبع عشر مرات في ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد